وفضلاً عن ولادتها في حضن التراث اللبناني فقد اتخذت شكلاً مبتكراً تلاءم مع إيقاع العصر والذوق الفني العالمي وهذا ما جعلها جسراً ابداعياً يمتد بين المبدع في العطاء اي الرحابنة وبين المبدع في التلقي اي الجمهور وتمكنت من خلال جدلية التكامل هذه ان تنضج وتتوهج وتتطور فانتقلت الى حوارٍ غنائي ثم الى سكتش اذاعي مع سبعٍ ومخول ونصري وهيفا... ومع بداية مهرجانات بعلبك حققت رغبة الجمهور في رؤية ما كان يسحر السمع. يتحول الى متعة نظر. وكانت المسرحيات الرحبانية الاولى التي انطلقت من التراث وراحت تتطور وتنضج عاماً بعد عام لتعالج في تجلياتها الاخيرة عمق اشكاليات الإنسان والعصر. فإذا كانت المسرحيات الاولى من موسم العزٍ الى البعلبكية الى جسر القمر انعكاساً لمشاكل القرية اللبنانية. فالمسرحيات التالية: الليل والقنديل. بياع الخواتم. دواليب الهوى ركّزت على آفاق السياسة وازماتها المجتمعية بعفوية وعمق. ثم ارتقت الى معالجة الإشكاليات الإنسانية الكبرى والهواجس الوطنية مع فخر الدين وجبال الصوان وبترا وميس الريم وغيرها. ثم الى مقاربة التحديات العالمية والمسائل الفلسفية كما في الشخص ولولو والمحطة وإذ اكتفي بالتلميح دون التحليل فلأن دراسة تطور المسرح الرحباني تشكل مشروعاً ثقافياً يتطلب اكثر من جهد واختصاص.

٥- ولا اغالي اذا قلت ان المسرح الرحباني اسهم الى حد بعيد في تشكيل لبنان الوطن. فالاوطان تحتاج الى تراث مشترك ومخزون مشترك من الإبداع والقيم بين سائر فئاتها يدفعها لكي تتبلور ككيان اجتماعي وسياسي. وقد استطاع الاخوان رحباني ومدرستهم الإبداعية جمع تراث رمزي كبير وبلورة فلكلور عبر افضل تعبير عن روحية الشعب اللبناني وقيمه المشتركة. وقد اصاب من قال : فلنبدأ اولاً بجمع وتأليف وتلحين اغاني الوطن واناشيده. ومن السهل بعدها ان يأتي من يسن القوانين. وغنيّ عن القول ان لبنان حقيقة جغرافية مميزة بموقعها ورقعتها ومناخها وسيرورة تاريخية انتجت ملامح هوية برزت مع لبنان الكبير والدستور والإستقلال كما ارتسمت مع الميثاق آفاق رسالة لبنانية منشودة. وهذه الرسالة تمنح لبنان

مبرر وجوده وفرادته ورسوخه. فإذا كانت الأوطان تستمد رسالتها من وجودها فلبنان يتأكد وجوده ويترسخ بمقدار ما يكتشف رسالته العالمية الإنسانية ويلتزم بأدائها.

وأصل الى القول ان لبنان الاستقلال كان صورة سلبية negatif لوطن حلم تحتاج الى تظهير وتشكيل. وهذا ما صنعه الرحابنة بحدس فنيّ وطنيّ انبثق من شغفهم بتراث وطن الجدود المبعثر اذ بادروا الى جمعه وبلورته بأرقى مقاييس الإبداع الفني. ساعين الى تظهير صورة لبنان. الوطن الحلم. وكان مسرحهم صدى لهذا المخزون المكثف من قيم التراث وترجمةٍ اجتماعية سياسية للبنان الميثاق وتمجيداً لرسالة عالمية لبنانية كبرى

٦- وبادر الاخوان رحباني الى توحيد اللكنات واللهجات اللبنانية المتنوعة. والى بلورة لغة شعبية لبنانية من خلال اعتماد لهجة ولسان واحد في الاغنية والمسرح. ونستدرك هنا لنقول:

هم لم يعتمدوا لهجة ابناء الجبل او لهجة منطقة منه كما يقول البعض. بل اختاروا من سائر المناطق اللبنانية الالفاظ واللكنات الاجمل لفظاً وجرساً وقرباً من الذوق العام. وسعوا الى معجم لبناني تذوب فيه الفوارق اللفظية واللهجات المتنافرة الى حد بعيد. واستدرك من جديد هنا لأشير الى دور اللغة الواحدة واللكنة الواحدة في تفعيل الاندماج الوطني والانصهار الثقافي والمجتمعي. ونؤكد هنا مرة ثانية على ان الفن الرحباني قد التزم قلباً وقالباً خط الانفتاح والتلاقي والاندماج الوطني لا خط الإنغلاق الذي كان يتمثل في النكوص الى هويات مغلقة تسعى الى التقوقع والجمود. لقد راح هذا النذْرة الفني المقدس يدعو الى المحبة والانصهار بعفوية المؤمن المحب. فكان ذلك نوعاً من النسامي sublimation وتحولاً الى رمز طوباوي: وكأني بلبنان الوطن قد فرّ من الواقع الوطني ليستوطن الرمز والأغنية. ونذكر هنا ان البعض قد أخذ على المدرسة الرحبانية